الفكر العربى وأسئلة الراهن

أحمد البرقاوى(*)

حين لا يقدم الواقع أجوبة عن أسئلة يطرحها الفكر فإننا نكون إذ ذاك أمام احتمالين: إما أن الأسئلة التى طرحناها على الواقع أسئلة زائفة، والأسئلة الزائفة لا جواب واقعياً عنها، أو أن الواقع راكد إلى الحد الذى ليس باستطاعته أن يجيب.

نتقدم بهذه الفكرة ابتداء لأننا أمام مشكلة جد معقدة ألا وهى: كيف تأتى أن تكون بعض أسئلة الراهن أسئلة طُرحت قبل قرن ونصف من الزمان؟.

أجل: فسؤال التقدم التاريخى الذى طرحه النهضويون العرب مازال سؤال المعاصرين من المفكرين العرب. وسؤال نحن والغرب الذى جهد الفكر النهضوى لفضّه، ما زال راهناً بل وحاضراً بصورة أكثر إلحاحًا. ناهيك عن أسئلة الدين والعلم والفلسفة واللاهوت، ونظام الحكم، والتجديد الدينى. أتراها أسئلة يطرحها الوعى العربى انطلاقا من رؤية العالم كما يجب أن يكون، أم هى أسئلة ناتجة عن وعى العالم كما هو أو بما ينطوى على إمكانيات تحتاج إلى إرادة مولدة للأجنة.

القول بأن الواقع راكد لم يتغير منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة المعيشة، قول يتناقض مع سيرورة التاريخ الفعلية. لكن التغير لم يكن فى اتجاه الإجابة الواقعية عن أسئلة الفكر العربى الحديث. أى أن أياً من أهداف عصر النهضة العربية لم يجد طريقة إلى التحقق.

فإذًا الأهداف تعبير عن أوتوبيا مفكرين يعيشون هاجس البشر الحقيقى والأصيل، لكنهم ما كانوا يمتلكون حاسة الشم التاريخى.

وفى كل الأحوال لسنا فى معرض محاكمة فكر النهضة العربية واستطالاته، ولا فى إطار الحكم على فكر ما بين الحربين وما بعدها. لسنا فى وارد هذا كله. كل ما نسأل لماذا أسئلتنا الراهنة أشبه بأسئلة الماضى القريب؟ أليس من الحكمة والحال هذه

(*). أستاذ الفلسفة، جامعة دمشق.

أن نتحرر من أسئلة الماضى القريب ونطرح أسئلتنا المعاصرة، أى أهـدافنا الواقعيـة؟ فلطالما أن أهدافنا القديمة قد مضى حين من الدهر على طرحها دون أن ترى النور؟

نحن أمام مشكلة حقيقية. المشكلة هى التالية : علاقة الطموحات بالواقع. إذا مـا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية فإن الأسئلة نفسها التى طرحت فى الماضى يمكـن أن تصبح واقعية إذا ما أحسن البحث عن أجوبة واقعية عنها.

دعونى الآن أحدد زاوية رؤيتى للمشكلة التى نحن بصدد عرضها، والبحث عن حل لها : أقصد مشكلة العلاقة بين الإمكانية وبين التاريخ وذلـك لأنهـا ذات ارتبـاط صميم بمسألة العلاقة بين الأهداف وتحققها فى الواقع.

تقوم أطروحتى على أن لا شىء قابل للتحقق تاريخيا إذا لم يكن بالأصل إمكانية قابعة فى قلب الواقع. ومن المحال تكسير رأس التاريخ لإجباره على أن يكون كما نريد دون أن يكون التاريخ فى حالة حمل صادق، أقول صادق لأن أكثـر المـشكلات فـى الحمل الذى يخدع الإرادة.وبارتباط هذه الأطروحة نقول: إن إمكانية قابعة فـى قلـب التاريخ تظل قابعة فيه إذا لم تجد الإرادة الفاعلة لنقلها إلى إمكانية.إذا انطلقنا من هـذه الأطروحة الصادقة تاريخياً والتى هى منهج فى التفكير وحللنا وفقها العلاقة بين أسـئلة الفكر العربى وبين الواقع ندرك أمرين: لماذا أخفقت الأفكار بالمعنى التـاريخى؟ ومـا هى الأفكار القابلة للتحقق؟

الأفكار هنا مأخوذة بوضعها أهدافاً- أسئلة. والإخفاق هنا معناه عدم التحقق.إذن إما أن أهدافنا إمكانيات لم تجد الإرادة، أو إرادة واعية أنتجت أهـدافنا دون أن تكـون إمكانيات؟

النقطة الثانية ذات الدلالة المنهجية هى التالية: يبدأ البعض بطرح رويته لطبيعـة العصر، ثم يعود إلى الواقع العربى ليراه من زاوية العصر فيطلب من الغرب الـدخول إلى العصر. وهذا منطق غير سليم فى الدخول إلى المشكلة التى نحن بـصددها. فمـا معنى دعوة البعض: لضرورة دخول العرب إلى العولمة مثلاً، وكأن المسألة هى مسألة خيار أن ندخل أو لا ندخل. ثم ما معنى أن ندخل أصلاً؟ و يتعرف باحـث مـا علـى التجربة اليابانية أو تجربة بلدان جنوب شرق آسيا، فيصرخ بنا هيا لنعيد تجربـة هـذه البلدان، بل إن بعض سياسيى بلدان الوطن العربى الذين يحكمون إمارة مـن دولـة لا

يتجاوز عدد سكانها ١٠٠ ألف نسمة يستدعون خبيراً ليرسم لهم طريقاً يوصلهم إلى نهاية يابانية.

الصواب هو أن نمتحن أسئلتنا وفق منطق العصر لمعرفة هل هى أسئلة صحيحة راهنة أم زائفة؟ وأن نكشف فى الواقع نفسه عن أسئلة جديدة لم تطرح فى السابق- إن وجدت طبعًا. لا أن نطرح أسئلة لا معنى لها. كاستعادة تجارب الآخرين بشحمها ولحمها.وهذا ليس دفاعاً عن الخصوصية كما يحلو للبعض، إطلاقًا، هذا عودة إلى العلاقة التى تحدثت عنها حول الإمكانية والواقع.

دعونى الآن أقدم أمثله عن أسئلة راهنة - قديمة. أولا، سؤال الوحدة العربية، وهو هدف مشترك عند الأغلبية من العرب، وحضوره قوى إلى الحد الذى يدفع السلطات العربية التى هى القضية الأساسية أمام الوحدة إلى الإدعاء بأنها مع الوحدة. والهدف هو ثمرة وعى بأن هناك قومًا اسمهم العرب مجزئين إلى دول شتى، رغم أن العرب يحوزون على ما هو مشترك. إذن الوحدة العربية هدف لم ينشأ من فراغ. هو إمكانية. وما يتمتع به العرب من شروط موضوعية تسمح بأن تكون الوحدة إمكانية.النظر إلى الوحدة تم فى إطار التدليل على أن العرب أمة يحوزون على كل شروط تكون الأمة، ولما كان العرب أمة، ولما كان أفرادها يعون أنهم ينتمون إلى أمة فإن الوحدة ضرورة تاريخية ولابد أن تقوم.

ودولة الوحدة هى النقيض للدولة القطرية التى هى شكل فاجع لمصير العرب. ولكن كيف تتحقق الوحدة؟ لا أحد يعرف سوى أنه يجب أن تتحرك الجماهير العربية لتحقيق الوحدة.هذا هو الوعى القديم بالوحدة العربية. الآن هل هذا السؤال- الهدف زائف أم حقيقى؟الجواب هو سؤال حقيقى لأنه إمكانية، لكن هذه الإمكانية ضاعت وتضيع وقد تضيع إلى أمد طويل لأن الوعى والإرادة لم يتعاملا مع هذه الإمكانية تعاملاً صحيحًا. كيف؟

افترض أن وجود أمة ما قبل الدولة يقود إلى الدولة بالضرورة. لكن العرب ليسوا أمة ما قبل الدولة. العرب قوم ما قبل الأمة. لأن الدولة هى العامل الحاسم فى تحقيق الأمة. فالدولة- الأمة هى الظاهرة التاريخية. وبالتالى الدولة هى التى تنقل القوم إلى مستوى الأمة. فالاطمئنان إلى العامل الأيديولوجى لتحقيق الوحدة شكل من القدرة المستترة.ثم إنه نُظر إلى الأجزاء العربية على أنها دول قطرية ذات سُلط قطرية. وهذا

أيضًا أمر خاطئ لأنه أدى إلى القول بضرورة الكفاح ضد الدولة القطرية التى هى بالأصل غائبة.

بينما الواقع هو التالى: أننا لا نملك حتى الآن دولة قطرية ذات سلطة قطرية. إذ لو كنا نملك هذه الظاهرة لتحقق الجزء الأكبر من أشكال الوحدة. فالسلطة هى ما قبل قطرية أى أنها لا تعبر عن نزوع كلى يشمل سكان القطر ومصالحهم. إذا كان الأمر هكذا وهو هكذا فإن الشرط الأول لقيام الوحدة هو قيام الدولة القطرية. سلطتها القطرية ناتجة عن عقد إجتماعى لأن المصلحة العامة لسكان أى قطر عربى إنما تكمن فى زوال الحدود السياسية وحرية الانتقال والعمل ناهيك عن تحقيق الشعور بالكرامة الإنسانية والعزة القومية. إن سؤال الوحدة القديم يصبح سؤالاً راهنًا بهذا المعنى. وبهذا المعنى فقط يصبح إمكانية قابلة للتحقيق طالما أن الوسيلة الضرورية ممكنة هى الآخرى.

لنأت إلى سؤال الحرية: هذا السؤال قديم أى طُرح منذ بداية عصر النهضة. ما الذى بجعل سؤال الحرية راهنا ببساطة غياب الحرية؟ ولماذا غابت الحرية. كان الجواب سياسيًا، انطلاقاً من أن السؤال هو سياسى فقط. فقد نظر إلى الحرية بوصفها تحرر الأمة من الفقر والجهل والاستعمار وما شابه ذلك. حسنًا إنها أشكال من التحرر تستحق أن يقاتل من أجلها. وكل أشكال الحرية الآنفة الذكر لا قيمة لها إذا لم تطرح الحرية بوصفها حرية الإنسان الفرد، أى حرية الأنا.لقد سُلب الأنا ونفى ونسى، لم تكن السياسة وحدها هى التى غربته عن عالمه، بل القيم السائدة بكل أنواعها. جعلت منه شيطاناً يعاذ بالله منه.

إن إعادة السؤال عن الحرية اليوم لا معنى له إلا بطرح الأنا الحر، الأنا الفرد الذى يحب ويكره ويغضب ويشك ويؤمن ويحن ويكتئب ويحلم..إلخ. هذا هو الذى نسى وعذب. إننا فى طرح السؤال عن الأنا على هذا النحو نحرر الأنا من الوعى المتراكم تاريخيا بهذا الكائن الوحيد القادر على التحايل بإخفاء أناه الحقيقية والظهور ظهوراً كاذباً بسبب قمع النظام القيمى ــ السياسى له. والحق أن سؤال الأنا مرتبط إلى حد كبير بسؤال راهن ومُلح أمام الفكر العربى المعاصر، ألا وهو سؤال الدين والسياسة والعلاقة بينهما.

لقد طرح الفكر العربى على امتداد قرن سؤال الدين بارتباطه بالعلم والفلسفة. وكان دائماً يريد للعلم أن يتحرر من القول الدينى، ويريد للفلسفة أن تنال استقلالها، دون أن يعنى ذلك أن العلاقة بين الدين والسياسة لم تطرح. بل طرحت فى إطار الإصلاح الدينى الإسلامى ومشكلة الحكم والتى أخذت صيغة فصل الدين عن الدولة لدى التيار العلمانى عموماً ولدى الأصلاح الدينى وبخاصة عند عبده وعلى عبد الرازق.وهى مناقشات تمت فى عالم يسير نحو بناء الدولة الحديثة. ولم تشهد المنطقة حركات إسلامية كما هو حال الحركات الإسلامية الراهنة التى تكاد تسيطر على الوعى العام والشارع العربى.

إن سؤال الدين والسياسة، هو سؤال عملى أولاً وقبل كل شئ. لا يمكن أن تتحرر السياسة من الدين إلا إذا تحررت السياسة من دولة السلطة وصارت تعبيراً عن سلطة الدولة. ذلك أن دولة السلطة هى شكل ضيق من ممارسة السياسة عبر التحكم الكلى بتلابيب المجتمع من أجل مصالح فئة ضيقة تجعل من نفسها عدواً للمجتمع وخصماً عنيداً للسكان، ولأنها- كما تعتقد- قادرة على الاستمرار بالقضاء على المجتمع السياسى والمدنى- فإنها لم تجد أمامها إلا البديل الإسلامى السياسى الذى يملك إرادة قوية وفاعلة، ولكن دون إمكانيات يُدافع عنها، لأن التاريخ لا يعيد نفسه أبدًا.

إن حل العلاقة السائدة الآن بين السياسة والدين رهن بحل العلاقة بين السياسة والمجتمع. وحلّ كهذا إمكانية متوافرة فيما لو بُدى بدولة العقد الاجتماعى لتحويل دولة السلطة إلى سلطة الدولة عبر الخيارات الحرة للمجتمع الذى يعترف قبل كل شيء بأن الوصول إلى السلطة عملية ديمقراطية دستورية تحتاج إلى سيرورة يقودها المجتمع بالذات. وسؤال الحرية بارتباطه أيضًا بسؤال الديموقراطية يجعل من المجتمع قوة حيوية قادرة على الحفاظ على منجزات الحرية والديموقراطية عبر آليات الاختيارات الحرة لسلطة الدولة من جهة ولتعميم الوعى بالحرية، بوصفها نمط الوجود الإنسانى الجماعى والفردى.

إن النتائج المترتبة على الانتقال من دولة السلطة إلى سلطة الدولة كثيرة وذات أبعاد ثقافية اقتصادية اجتماعية وتنموية وحدودية. فسلطة الدولة وحدها تفكر بوصفها

عقل المجتمع. فيما دولة السلطة لا تفكر إلا بذاتها وباستمرارها وبإيجاد كل السبل الكفيلة بالقضاء على ما تتعرض له، وبالتالى هى دولة قمعية بامتياز.

إن الدولة بوصفها ممثل المجتمع، لا تفكر بديلا عن المجتمع بل تعبر عن المجتمع فى كل طموحاته بمعزل عن نتائج النجاح والفشل لدولة السلطة. تفكر بثرائها، فيما سلطة الدولة تفكر بثراء المجتمع، بتنمية المجتمع، بحاجات المجتمع وهكذا. ولعمرى إن هذا السؤال هو أهم سؤال ينتصب أمام الفكر العربى المعاصر لأن فى الجواب النظرى والعلمى عنه نحدد جزءًا كبيراً من خيارات المستقبل.

ومن الأسئلة التى مازالت حاضرة فى الفكر العربى سؤال نحن والآخر. تشير نحن إلى العرب وتشير الآخر إلى الغرب. مفهوم العرب واضح، مفهوم الغرب غامض. إنه قوة عسكرية علمية اقتصادية ثقافية مهيمنة عالميا. أمريكا فى هذا العصر غرب لأنها تنتمى تاريخيا إليه.الآخر المهيمن هذه هى المشكلة التى كان الفكر العربى يضعها موضع التساؤل فى صيغتين: كيف نصير غربا؟ وكيف نتحرر من الهيمنة الغربية؟ علينا أن نتحرر من أولا من السؤال القديم: كيف نصبح غربا؟ وكيف نتحرر منه؟ وهو سؤال زائف : سؤال يريد أن يستعيد حضارة خارجية ويعيد إنتاجها، كما يريد أن يتحرر منها، أى من هيمنتها بعد أن يعيد إنتاجها.

إن سؤال العرب عصر النهضة على هذا النحو والذى يتغزل به البعض الآن هو سؤال زائف بالمرة. لأنه لم يفهم سيرورة الغرب من جهة، ولا سيرورة العرب من جهة أخرى.إذ لم ير فى تقدم الغرب إلا مظاهر تقدم ولم ير فى تقدم الشرق إلا فى استيراد مظاهره. ولهذا أخفق فى الإجابة عن السؤال.

الآن ما هو السؤال الجديد الذى يجب علينا أن نطرحه والذى يمس علاقتنا بالعالم؟ إن العالم قد تغير، ما يعنينا من التغير هنا هو التغير الذى له علاقة بالسؤال الآتى: كيف نرى علاقتنا بالعالم؟

جاء حين من الدهر كان المقصود بالعالم، المعسكرين: الرأسمالى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والاشتراكى بقيادة الاتحاد السوفييتى أى أن معنى العالم هنا هو العالم الفاعل أى الدول ذات الفاعلية فى تحديد صورة العالم. وكان العرب جزءا من الأطراف بالقياس إلى المركزين الكبيرين، وكانت الأطراف فاعلة فى حركة العالم. بحيث بدأ كل من المركزين ساعيا لأن يضم إلى جانبه العدد الأكبر من الأطراف

انطلاقاً من أن اكتساب الأطراف عامل من عوامل إضعاف هذا المركز أو ذاك. ومن آثار هذا الصراع على انتساب الأطراف كانت تنعم بشكل من أشكال الهيبة والمساعدة والقيمة لدى المركزين.

لقد غاب التقسيم العالمى السابق. وأصبحنا أمام ظاهرة جديدة ألا وهى أن العالم أصبح مراكز بلا أطراف. فإذا كنا نعيش صراعا أيديولوجياً بين مركزين كبيرين، فإن هذا الصراع كفّ عن الوجود، وأصبح العالم جملة مراكز تتسابق على التهام الأطراف. فليس قولنا أن العالم أصبح مراكز بلا أطراف أن كل ما فى العالم أصبح مركزًا بل إن القوة التى كانت تتمتع بها الأطراف، إن من حيث هى حركات تحرر متحالفة مع الاتحاد السوفييتى أو من حيث هى دائرة فى فلك الولايات المتحدة لم تعد تميز حركة العالم. إذا فالقول بأن العالم أصبح مراكز بلا أطراف يفضى إلى موت الأطرف..والمراكز صارت معددة: المركز الأمريكى- المركز الأوروبى- المركز اليابانى- المركز الصينى- المركز الروسى. وحركة العالم اليوم هى حركة المراكز هذه التى تعد فى حال صراع إيديولوجى، ولا صراع نائم بفعل التهديد بالقوة النووية، إنه الآن صراع سلمى على اقتسام العالم فى مرحلة جديدة من الرأسمالية هى العولمة. فكرة العالم تغيرت إذن، وعليه يجب أن يتغير مفهوم العالم عربيا الذى كان وقفا على الغرب. وإذا كانت المراكز اليوم تبحث عن مجالاتها الحيوية فإن عددًا من الأمم التاريخية لا تستطيع إلا أن تفكر فى وضع يؤهلها لأن تتجنب الهيمنة من جهة، وتفكر فى مكانة ذات فاعلية يقربها من المراكز، كالهند مثلا.

ولما كانت العولمة قد وفرت الأساس أمام كل شعوب الأرض لامتلاك التقنية مهما كانت متطورة، فإن سؤال التقدم التقنى- العلمى ليس سؤالا أساسياً. بل السؤال هو: كيف يغدو هذا التقدم عاملا مساعدا فى الحيلولة دون هيمنة المراكز، وتحقيق مكانة مهمة إلى جانب المراكز. فالعرب من الأقوام الكبيرة سكانا ومساحة، والغنية: ثروات وكوادر، ومن الأقوام التى تنطوى على طموح لتكون أمة فاعلة بسبب استمرار الوعى التاريخى بالماضى.

لذلك سؤال العرب وعلاقاتهم بالعالم يتضمن سؤالا أهم: كيف يتحول العرب إلى أمة دولة، أو بصورة أقل مباشرة: كيف يمكن للعرب أن يصلوا إلى معادل سياسى مشترك، يحولهم من كم سكانى ومادى واقتصادى وثقافى إلى كيف جديد؟

لا شك أن هذا السؤال ينطوى بدوره على سؤالين مهمين:

(أ) ما هى العوامل الداخلية القادرة على إنجاز ذلك؟

(ب) كيف نتجاوز الكبح الخارجى لهذا الأمل؟

وعندى أن السؤال الأول هو الأهم، فالداخل حين تتحقق الرغبة فى ترتيبية فإن فعل الخارج يتضاءل بل ويصل حد التلاشى.

وقد يقول قائل: إنك تتحدث عن العرب الأمة- الدولة فى عصر يأذن بزوال الدولة القومية. وهذا قول باطل بالمرة. إن الدولة القومية حتى الآن باقية فاعلة إلى أبعد الحدود لكن العلاقات الدولية هى التى تغيرت وهى التى تظهر الآن مفهوما جديدا للسيادة القومية يقوم على حرية الفعل الاقتصادى- المالى خارج حدود الدولة القومية.

ولدينا مثالان ساطعان يدلان على استمرار الدولة القومية كحلم إنسانى. بعد البيريسترويكا وتحطيم جدار برلين عادت ألمانيا دولة قومية واحدة. لماذا لم تبق ألمانيا دولتين شرقية وغربية؟ ما الذى دفع الألمان لإعادة الدولة القومية الواحدة.وبعد تفكك الدولة السوفييتية المتعددة القوميات عادت القوميات لتكوين دولها حتى الصغيرة منها التى لا تُرى إلا بالعين المجردة كأستونيا وملدافيا وليتوانيا.. ومازال الشيشان يطمحون لتكوين دولتهم القومية.

إن أمة كانت دولتين فصارت دولة - أمة ودولة متعددة القوميات تحولت إلى دول قومية. هذا جرى فى نهاية القرن العشرين وليس فى عصر القوميات، لكن سؤال الدولة- الأمة لم يعد مطروحا فقط فى حقل الوعى القومى بل فى حقل المصالح الأساسية للبشر الذين يشعرون بالانتماء إلى هوية وقومية.دون هذا لا يمكن الحديث عن علاقة مع العالم يكوّن فيها العرب فاعلين لا موضوع هيمنة.

وإذا كانت العولمة فى إحدى سماتها توحيد العالم وجعله أشبه بالقرية الكونية، فالأولى لمن يدعو إلى توحيد العالم أن يوحد أجزاء من العالم فى إطار وحدة العالم. وماذا تعنى وحدة العالم؟ إزالة الحدود الاقتصادية، فتح الحدود أمام انتقال الأفراد والأفكار والثقافات والسلع، وحدة مشكلات البشر، وحدة مناهضة الآثار المدمرة لحركة العالم العولمية... الخ. ألا يتطلب هذا وجود كتل كبيرة للتلاؤم مع حركة العالم؟ هل يتطلب هذا كتلة مبعثرة كالعرب إعادة اللحمة أية لحمة ما بين أجزاء هذه الكتلة؟

وقد تسألون ماذا عن سؤال الصراع مع الصهيونية ودولة لإسرائيل: الحق أقول لكم إن إسرائيل الناتجة عن العصر الاستعمارى المباشر للمنطقة، والمتلائمة مع حركة الرأسمالية- الإمبريالية، لم تعد تمتلك شرط وجودها الآن. فزوال مظاهر الاستعمار القديم تكاد تكون عامة وكلية باستثناء ظاهرة إسرائيل. وهى الآن موجودة بفضلنا وليس أنفا عنا. إنها ظاهرة غير قابلة للحياة فى عالم متشابه لكون فيه نشازا تاريخيا.

وعندى إن الإجابات العملية عن الأسئلة السابقة هى الكفيلة بأن تجعل من الإجابة عن سؤال ما مصير إسرائيل إجابة عملية، أى أن إسرائيل إلى زوال بفعل الحركة الكلية للعرب. دون هذا الفعل لا جواب عن أية أسئلة خاصة.

هل هناك أسئلة أخرى غير تلك التى طرحنا؟ نعم! ولكن حل الأسئلة الكبيرة كفيل بحل الأسئلة الصغيرة.